الفصل التاسع
ذو النون في الظلمات

كان يونس بن متى نبيا كريما أرسله الله إلى قومه فراح يعظهم، وينصحهم، ويرشدهم إلى الخير، ويذكرهم بيوم القيامة، ويخوفهم من النار، ويحببهم إلى الجنة، ويأمرهم بالمعروف، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده. وظل ذو النون -يونس عليه السلام- ينصح قومه فلم يؤمن منهم أحد، وجاء يوم عليه فأحس باليأس من قومه.. وامتلأ قلبه بالغضب عليهم لأنهم لا يؤمنون، وخرج غاضبا وقرر هجرهم ووعدهم بحلول العذاب بهم بعد ثلاثة أيام، فلما خرج من قريته،

وتأكد أهل القرية من نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، وصرخوا وتضرعوا إلى الله عز وجل، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات. وكانوا مائة ألف و يزيدون ولا ينقصون. وقد آمنوا أجمعين. فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي استحقوه بتكذيبهم.. ولمّا خرج سيدنا يونس غضباناً من قومه، سار حتى وصل شاطئ البحر، فوجد قوماً في سفينةٍ في البحر، فطلب من أهلها أن يركبَ معهم، فتوسّموا فيه خيراً، وأركبوه معهم، فلمّا توسّطوا البحر جاءت رياحٌ شديدةٌ، وهاج البحر بهم، واضطرب بشدّةٍ حتّى وجلت القلوب، فقال من في السفينة:" إنّ فينا صاحب ذنبٍ "، فأسهموا واقترعوا فيما بينهم على أنّ من يقع عليه السهم

يُلقوه في البحر، فلمّا اقترعوا وقع السّهم على نبيّ الله يونس، ولكنهم لم يسمحوا بإلقائه في البحر لما توسّموه من صلاحهِ، فأعادوا القرعة ثانيةً فوقعت عليه أيضاً، فشمَّر يونس عليه السّلام ليلقي بنفسه في البحر، فأبوا ذلك لمّا عرفوا منه خيراً، ثمّ أعادوا القرعة ثالثةً، فوقعت عليه أيضاً، فما كان من يونس عليه السّلام إلا أن ألقى بنفسه في البحر، لأنّه كان يعتقد أنّه لا يُصيبه هلاكٌ أو غرق. وعندما ألقى بنفسه وكّل الله تبارك وتعالى به حوتاً كبيراً، فالتقمه وابتلعه، ابتلاءً له على تركه قومه الذين أغضبوه دون إذن من الله ، فدخل نبي الله يونس عليه السّلام إلى جوف الحوت تحفُّهُ عنايةُ الله، حتى صار وهو في بطن الحوت في ظُلمات حالكاتٍ ثلاثٍ، وهي ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت. وسار الحوت وفي جوفه يونس عليه السّلام، وانتهى بهِ إلى أعماق المياه في البحر، وهناك سمع يونس عليه الصّلاة والسّلام حِسّاً وأصواتاً غريبةً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إنَّ هذا تسبيح دوابّ البحر، فما كان من نبيّ الله يونس عليه السّلام وهو في بطن الحوت، وفي تلك الظلمات إلّا أن أخذ يدعو الله عز وجل، ويستغفرهُ، ويسبّحه تبارك وتعالى قائلاً ما ورد عنه في القرآن: " وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ "، سورة الأنبياء . وسمعت ملائكة السّماء تسبيحه لله عز وجل، وسألوا الله تعالى أن يُفرّج الضّيق عنه، فاستجاب الله تعالى دعاءهُ، ونجّاه من الغمّ، والكرب، والضّيق الذي وقع فيه، لأنّه كان من المُسبّحين في بطن الحوت،

ومن الذاكرين لله، وأمر الله تعالى الحوت أن يُلقيه في البرّ، فألقاهُ الحوت في العراء، وهو المكان القفر الذي ليس فيه أشجارٌ، والأرض التي لا يُتوارى فيه بشجرٍ ولا بغيره، وكان يونس عليه السلام مريضاً ضعيفاً، وقد مكث نبي الله يونس عليه السّلام في بطن الحوتِ ثلاثة أيّام، وقيل: سبعة أيّام، وقيل غير ذلك. ولولا أنّه سبّح الله ،وهو في بطن الحوت، ، للبث في بطن الحُوت إلى يوم القيامة، ولبُعث من جوف الحوت، فكانت رحمة الله بيونس في تلك الكلمات التي أوحى إليه بها لتكون له طوق نجاة من هذا الابتلاء العظيم، فيونس نبي الله وهو من المرسلين

، قال الله تبارك وتعالى: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)الصافات وعندما ألقى الحوت بيونس في هذا المكان وحيدا بلا أنيس ولا غطاء أنبت الله عليه شجرة القرع

. قال بعض العلماء في إنبات القرع عليه حِكَم جمة. منها أن ورقه في غاية النعومة وكثير وظليل وله فوائد كثيرة. وفيه نفع كثير ،كما أنه تؤكل ثماره ،وكان هذا من تدبير الله ولطفه بيونس ورحمته بعبده المؤمن فضلا عن إنه نبيه الذي اصطفاه، فعندما خرج يونس بغير إذن من ربه ولم يتمم رسالته من ربه ، فانظر ماذا وقع لقومه؟. لقد آمنوا به بعد خروجه..

ولو أنه مكث فيهم لأدرك ذلك وعرفه واطمأن قلبه وذهب غضبه.. غير أنه كان متسرعا.. وليس تسرعه هذا سوى فيض في رغبته أن يؤمن الناس، وإنما اندفع إلى الخروج كراهية لهم لعدم إيمانهم.. فعاقبه الله وعلمه أنه على النبي أن يدعو لله فحسب. والله يهدي من يشاء وأنه باطمئنان القلوب تدرك الغايات